الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء — سورة بنى إسرائيل

هى مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخرهنّ .

وعدد آيها عشر ومائة . أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزُّمَر ، وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى .

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

(١) إنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل .

(٢) إنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة — ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(٣) إنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

(٤) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ـ وهنا ذكر: وتنزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين .

(٥) إنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

شرح المفردات

سبحان الله : أى تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، والإسراء كالسرى: السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

الإيضاح

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) أى تنزيها للذى أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته ، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا .

(الذى باركنا حوله) أى الذى جعلنا حوله البركة لسكانه فى معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم .

(لنريه من آياتنا) أى كى نرى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا ما فيه البرهان الساطع والدليل القاطع على وحدانيتنا وعظم قدرتنا .

(إنه هو السميع البصير) أى إن الذى أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سرى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس، البصير بما يفعلون ، لاتخفى عليه خافية من أمرهم ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فهو محيط به علما ومحصيه عددا وهو لهم بالمرصاد ، وسيجزيهم بما هم له أهل .

تحقيق ما قيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

(١) إسراء النبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة .

(٢) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء الله .

آراء العلماء فى الإسراء

هاهنا أمور — مكان الإسراء — زمانه — هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

(١) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام — وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب .

(٢) أما زمانه فقد كان ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن البصرى أنه كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناما ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إن التسبيح والتعجب فى قوله : سبحان الذى أسرى بعبده ـ إنما يكون فى الأمور العظام ـ ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظما .

(ب) إنه لو كان مناما ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كانوا أسلموا ، ولما قالت أم هانئ لا تحدث الناس فيكذبوك ، ولما فضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكربت كربا ما كربت مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شئ إلا أنبأتهم به » الحديث .

(حـ) إن قوله (بعبده) يدل على مجموع الروح والجسد .

(ء) إن ابن عباس قال فى قوله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائدا :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلبا كان جما بلابله

(هـ) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة سير سليمان عليه السلام : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(ا) إن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رؤيا من الله صادقة ـ وقد ضعف هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره فى مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبى بكر قال : كانت عائشة تقول ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه ، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ح) إن الحسن قال فى قوله (وما جعلنا الرؤيا) الآية إنها رؤيا منام رآها (والرؤيا تختص بالنوم) .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ماهو مسيرة شهر أو أقل ـ و بعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ـ إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لاتحمل إلا الأجساد اهـ .

والخلاصة — إن الذى عليه المعول عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لا منامًا من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله يصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ثم ركب البراق وعاد إلى مكة بغلس .

إلمامة فى المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع كان بجسده وروحه يقظة لا منامًا لدليلين :

(ا) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلا بهما .

(ب) الحديث المروى فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(١) إن الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

(٢) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يستدل به على صدقه فى ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك فى وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم .

(٣) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوى فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحى أو يتنفس فيه .

(٤) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء فى غاية البعد :

(ا) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذى يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك فى تطهير القلب عن العقائد الزائفة والأخلاق المذمومة .

(ب) ركوب البراق ولا حاجة له بذلك لأن العالم العلوى فى غنى عن ذلك .

(حـ) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى الله عليه وسلم يتردد بين الله وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام — وهذا غير جائز كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به وهذا بداء محال على الله .

(د) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوى ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لا الجسمية ، إذ لا يعقل غير هذا — وبهذا يثبت المعراج الروحى لا الجسمانى .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى ككل معجزات الأنبياء من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث واشتماله على أمور غريبة لا حاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاورة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى وإن صححه رواة الحديث باعتبار سنده .

عظة وذكرى

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين لنستخلص منهما أمورا هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(١) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ليمحص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى

دار الهجرة والانضواء تحت لوائه وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من حروب دينية وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقا وغربا .

(٢) إن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسبح فى أرجاء المعمورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء — فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً »

(٣) إن ما يجدّ كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طى المسافات بوسائل الطيارات وقطع المحيطات فى قليل الساعات من قارة إلى قارة ومن قطر إلى قطر ليجعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(٤) إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

(٥) إن ما جاء فى الحديث من أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى إماما بالأنبياء فى عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة

ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأممها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به .

(٦) إن فى هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم — أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لا حربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس ، كما هو المتبع فى القوانين الوضعية فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير وهو يلغى جميع ما سبقه .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة، وكيلا أى كفيلا تكلون إليه أموركم ، شكورا أى كثير الشكر ، وقضينا أى أعلمنا بالوحى ، لتعلن أى لتستكبرن عن طاعة الله ، والوعد أى الموعود به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا الديار: توسطوها وترددوا بينها، والكرة : الدُّولة والغلبة؛ وأصل الكر العطف والرجوع ، والنفير والنافر: من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والتتبير : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ، ما علوا أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير السجن كما قال ابن عباس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس — أردف ذلك بذكر ما أكرم به موسى قبله بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة وأعاد لهم الدولة وأمدهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرى فأعمل فيهم السيف وسلب ونهب وجاس خلال ديارهم فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله وخالف أوامر دينه .

الإيضاح

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) أى وأعطينا موسى التوراة وجعلنا فيها هداية لبنى إسرائيل ، وقلنا لهم : لا تتخذوا من دونى وليا ولا نصيرا تكلون إليه أموركم ، وهذه مقالة أوحى الله بها إلى كل نبى أرسله ، أمرهم جميعا أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وألا يعوّلوا فى أمر إلا عليه .

وقد جاءت هذه الآية عقب آية الإسراء من قِبَل أن موسى أوتى التوراة بمسيره إلى الطور كما أسرى بمحمد إلى بيت المقدس .

ثم نبه إلى عظيم شرف بنى إسرائيل وإتمام نعمته عليهم ، ليكون فى ذلك تهييج لهم و بيان لعظيم المنة عليهم فقال :

(ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) أى يا سلالة ذلك النبى الكريم الذى شمله الله بجميل رعايته وأنجاه من غرق الطوفان بما ألهمه من عمل السفينة التى حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أنتم من حفدة أبنائه ، فتشبهوا بأبيكم واقتدوا به فإنه كان عبدا شكورا أى مبالغا فى الشكر بصرفه كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فاللسان لذكر الله ، والعقل للفكر فيما خلق الله ، والبصر للتأمل فيما صنع الله ، وهكذا بقية الحواس وأعضاء الجسم .

أخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا كان إذا أمسى وأصبح قال (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) .

وأخرج ابن جرير والبيهقى والحاكم عن سلمان الفارسى قال : « كان نوح إذا لبس ثوبا أو أطعم طعاما حمد الله تعالى فسمى عبدا شكورا » .

وفى هذا إيماء إلى أن إنجاء من كان معه كان ببركة شكره ، وفيه حث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أفظع مراتب الكفر .

ثم بين سبحانه أنه أنعم على بنى إسرائيل بالتوراة ، وجعلها هدى لهم لـكنهم لم يهتدوا بها فقال :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الـكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلنّ علوّا كبيرا) أى وأوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى فأعلمهم به : لتعصنّ الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله . والثانية قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغنّ على الناس ولتظلمنهم ظلما شديدا تفْرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) أى فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أولى بطش شديد فى الحروب هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا فى البلاد وترددوا بين الدور والمساكن للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم وأحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وسبوا منكم عددا كثيرا وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لامرد له .

(ثم رددنا لـكم الـكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) أى ثم رجعت لـكم الدّولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلوّ ، فغزوتم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالـكم بعد أن نهبت ، وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره وتركتم نهيه ـ أحسنتم لأنفسكم لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها ؛ أما فى الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ويرد كيده فى نحره ، وينمى

لكم أموالكم ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما فى الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم (ورضوان من الله أكبر) .

وإن عصيتم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه تعالى فيسلط عليكم فى الدنيا أعداءكم ويمكّن منكم من يبغى بكم السوء ، ويلحق بكم فى الآخرة العذاب المهين .

(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا) أى فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرتى إفسادكم فى الأرض بعثنا أعداءكم ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم (فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة) وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه تتبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيردوس أو خردوس اه .

والذى أثبته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولا وخرب بيت المقدس هو بُخْتُنَصَّر وكان ذلك فى زمن أرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم بمجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه — وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيانوس قيصر الروم وكان بين الإغارتين نحو من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد البعث الثانى إن تبتم وازدجرتم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

(وإن عدتم عدنا) أى وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى ـ عدنا عليكم بالقتل والسباء وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذبوا النبى صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله فسلطه الله عليهم ، فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقين ، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى إنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابسا لهم لا رجاء لهم فى الخلاص منه .

وخلاصة ذلك — إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم فلا يتخلصون منه أبدا .

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسراء وأكرم موسى بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة ـ قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب

العظيم ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولا قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك والدمار واللعنة كما يدعو لنفسه بالخير .

الإيضاح

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بصفات ثلاث :

(١) إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التى هى أقوم السبل وهى ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء التى أهم دعائمها الإخبات لله والإنابة إليه واعتقاد أنه واحد لا شريك له ، وأنه صاحب الملك والملكوت وهو الحى الذى لا يموت ، وهو الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) إنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمر الله وينتهون عما نهاهم عنه ، بالأجر العظيم يوم القيامة كفاء ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح .

(٣) إنه ينذر الذين لا يصدقون بالمعاد ولا يقرون بالثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا يتحاشون ركوب المعاصى - بالعذاب الأليم الموجع جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام ، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب لأن بعضهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانيين ، وبعضهم يقول : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهكم كما فى قوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وبعد أن بين حال الهادى وهو الكتاب الكريم بين حال المهدى وهو الإنسان فقال :

(ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أى ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول: اللهم العنى، اللهم أهلكنى، كدعائه ربه بالخير أى بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ، ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا لهلك ، ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه كما قال « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » وفى الحديث «لاتدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زَمْعة أسيرا فأقبل يئنّ بالليل ، فقالت له مالك تئن فشكا ألم القِدّ (سير من جلد غير مدبوغ تربط به يدا الأسير ورقبته) فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال عليه السلام « اللهم اقطع يدها » فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من أهلى رحمة ، لأنى بشر أغضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها » .

وقد يكون المعنى فى الآية — إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشىء يعتقد أن فيه خيره ، مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل لكونه مجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص لحقائقها وأسرارها ومن ثم قال :

(وكان الإنسان عجولا) يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره .

وفى الآية إيماء إلى أن القرآن يدعو للتى هى أقوم ، ويأبون إلا التى هى ألوم .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم — قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

الإيضاح

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ، أما فى الدين فلأن كلا منهما مضادّ للآخر ومخالف له مع تعاقبهما على الدوام ، وهذا من أقوى الأدلة على أنه لا بد لهما من فاعل مدبر يقدرهما بمقادير مخصوصة ، وأما فى الدنيا فلأن مصالحه لا تتم إلا بهما ، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش .

(فمحونا آية الليل) أى محونا آية هى الليل أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء كما لا يستبين ما فى اللوح الممحوّ روى ذلك عن مجاهد .

(وجعلنا آية النهار مبصرة) أى وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ومبصرة أى يبصر أهلها فيها .

(لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فعلنا ذلك لتطلبوا لأنفسكم فيه رزقا من ربكم إذ لا يتسنى ذلك فى الليل ، وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئا فشيئا — دلالة على أنه ليس للمرء فى تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية ، وفى الخبر « يطلبك رزقك كما يطلبك أجلك » وقيل :

ولقد علمت وما الإشراف من خلقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعنينى

(ولتعلموا عدد السنين والحساب) أى ولتعلموا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدينية والدنيوية، ولتعلموا الحساب أى حساب الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيط به شىء من تلك المصالح إذ لو كان الزمان كله نسقا واحدا لما عرف شىء من هذا كما قال تعالى «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » وقال « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » .

ولا شك أن فى ذكر منافعهما وبيان ما فيهما من الدلالة على وجود الخالق تفصيلا لتلك الفوائد ، لا جرم قال :

(وكل شىء فصلناه تفصيلا) أى وكل شىء لكم إليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم قد فصلناه تفصيلا بينا ، ونحو الآية قوله « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ » وقوله « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ » .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

شرح المفردات

طائره ، أى عمله ، سمى به إما لأنه طار إليه من عش الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر الله لا طائرك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن ؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا ، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به وسموه سانحا ، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا، كتابا : هو صحيفة عمله، منشورا، أى غير مطوى، حسيبا ، أى حاسبا أى عادّا يعد عليه أعماله ، والوزر: الإثم والذنب، يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، والمترفون : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، أمرنا مترفيها ، أى أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا، أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، فحق عليها القول، أى وجب لها العذاب ، والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر ، والقرن : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، والعاجلة : الدار

الدنيا ، يصلاها ، أى يقاسى حرها ، مدحورا ، أى مطرودا مبعدا من رحمة الله ، محظورا أى ممنوعا عمن يريده .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه — قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبيحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه ؛ ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحدا منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة ، وأعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره وأن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم وبما يستحقون ، ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن وأولئك سعيهم مشكور مقبول عند ربهم ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

الإيضاح

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى وألزمنا كل امرئ عمله الذى يصدر منه باختياره على حسب ما قدر له من خير

أو شر ، لا ينفك عنه بحال ، والعرب تضرب المثل للشىء الذى يلزم بالشىء الذى يوضع فى العنق ، فيقولون جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه ما يزين المرء كالقلائد والأطواق ، أو ما يشينه كالأغلال والأوهاق (الحبال تجرّ بها الدواب) .

وخلاصة هذا — إن كل إنسان منكم معشر بنى آدم ألزمناه نحسه وسعده ، وشقاءه وسعادته ، بما سبق فى علمنا أنه صائر إليه ، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التى كسبها فى الدنيا ، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف فى تلك الحياة .

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: قال الله يابن آدم بسطنا لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا ، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذى عملته فى الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصيانه عليك ، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها ، لا نبتغى عليك شاهدا غيرها ، ولا نطلب محصيا سواها .

و بعد أن ذكر أن القرآن هاد للتى هى أقوم وأن الأعمال لازمة لأصحابها بين أن منفعة العمل ومضرته راجعة إلى عامله فقال :

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) أى من استقام على طريق الحق واتبعه ، واتبع الدين الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، فنفسه

قد نفع ، ومن حاد عن قصد السبيل وسار على غير هدى وكفر بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه من الحق فلا يضرنّ إلا نفسه ، لأنه جعلها مستحقة لغضب الله وأليم عذابه .

ثم زاد الجملة الثانية توكيدا بقوله :

(ولا تزرو وازرة وزر أخرى) أى ولا تأثم نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس .

وفى هذا قطع لأطماعهم الفارغة ، إذ كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم ، روى عن ابن عباس أن هـــذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وقوله : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن الدعاة إلى الضلال عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئا ، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده .

ثم ذكر عنايته ورحمته بهم فقال :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أى وما كنا مهلكى قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل وإقامة الحجة عليهم بالآيات التى تقطع أعذارهم ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ » وقوله : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

وخلاصة ذلك — إن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا نعذب أحدا أى نوع من العذاب الدنيوى أو الأخروى على فعل شىء أو تركه إلا إذا أرسلنا رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع وتبلغه دعوته .

قال الإمام الغزالى : الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

(ا) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، وأولئك مقطوع لهم بالجنة .

(ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانَيْنا ، وأولئك مقطوع لهم بالنار .

(حـ) من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا بالدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك ، وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم فى الإيمان به اهـ .

يريد الغزالى بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة ، وعن دينه أخبارا لاتنطبق على حقيقته ، كما يفعل رجال الكنائس فى تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلاق، وأنه كان متهالكا فى حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ، لأنه كان يسجد للكعبة، وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لايقولون إلا ترهات وأباطيل .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثة الرسل فقال :

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أىّ قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ودنست به أنفسها من الآثام — لم نعاجلها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقا لاجتراحهم

السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميرا ولم نبق منها ديارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعا لهم ، وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر — أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطرهم وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها ، إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله صلى الله عليه وسلم « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى مهرة كثر نسلها وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى.

ثم ذكر أن كثيرا من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، واستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله ـ ما لا يخفى .

(وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

يصلاها مذموما مدحورا) أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصليه حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعدا من رحمته مطرودا من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(ا) الدوام والخلود و إلى ذلك الإشارة بقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلاها أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(ب) الإهانة والاحتقار و إلى ذلك أشار بقوله مذموما .

(ح) البعد والطرد من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص و إلى هذا أشار بقوله : مدحورا، وفى قوله: لمن نريد، إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريدها ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا ، وربما فاتتهم أيضا .

(٢) (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى ومن أراد الآخرة ولها عمل و إياها طلب ، فأطاع الله وطلب مايرضيه ، وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ـ شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن المثوبة ، كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أمورا ثلاثة :

(ا) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وجاء فى الحديث :

« إنما الأعمال بالنيات » ـ إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لاتحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه والإخبات والخشوع له .

(ب) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لامن الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(ح) أن يكون ذلك وهو مؤمن ، فإن أعمال البر لاتوجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لايحظر على كل من الفريقين فقال :

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى إن كلا من الفريقين مريدى العاجلة ومريدى الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن نمده ربه بعطائه ويوسع عليه الرزق ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضح ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء على أحد فقال :

(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله : « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » وقوله : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات السفلى فى جهنم مصفدا بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم، ففى الصحيحين «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء» وفيهما : « إن الله تعالى أعدّ لعباده الصالحين ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سُهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان ابن حرب ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب و بلال وأهل بدر وكان يحبهم ، فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لايلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، إنهم دُعوا ودعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ

كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا
كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا
مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ
الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ،
إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا
(٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩)

شرح المفردات

فتقعد : أى فتصير ، مذموما : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، مخذولا : أى من الله لأنك أشركت معه ما لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقضى : أى حكم وأمر ، وأفّ : اسم صوت ينبئ عن التضجر والتألم ويقولون لاتقل لفلان أف أى لاتتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريما : أى جميلا لاشراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم . وخفضُ الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أى من فرط رحمتك عليهما والأوّاب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أى قرناؤهم ، والابتغاء : الطلب ، والرحمة الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، وتبسطها : أى تتوسع فى الإنفاق ، والمحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ويقدر : أى يقتر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجدٌ		أُعِـدّ لأضيافى الشّواء المضهّبا

والخطء : كالإثم لفظا ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبح ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أى لايتجاوز الحد المشروع فيه ، التى هى أحسن أى الطريق التى هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، والقسطاس : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، والمستقيم : العدل ، والتأويل مايئول إليه الشىء وهو عاقبته ، ولاتقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، والمرح : الفخر والكبر ، لن تخرق الأرض : أى لن تجعل فيها طرقا بدوسك وشدة وطأتك، والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من رحمة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والوبال، وفريق يريد بعمله طاعة الله،وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة وأن يكونوا مؤمنين — لا جرم فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعيا للآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن حظهم ، ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، و بعدئذ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنهما السبب الظاهر فى وجوده ، و بالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع والمسلمون كلهم إخوة وهم يد على من سواهم ، ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما فيه من إصلاح حال المرء وعدم ارتباكه فى معيشته، وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ففى صلاحهم صلاحها ، ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين و يرشد إلى حسنه العقل ، و بعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر و بين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم فلا وجه للخوف من ذلك ؛ ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب وفقدان النسل أو قلته ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض ؛ ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيته ، ثم بإيفاء الكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شؤون الفرد والمجتمع ، ثم بالنهى عن تتبع ما لاعلم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم من عبادة الأصنام تقليدا لهم ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ،

ولا فى شىء لم تره ، إنك قد رأيته ، ثم بالنهى عن مشية الخيلاء والمرح لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله ولا الناس ، ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه لا من عند نفسه، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

الإيضاح

(لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) أى لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا فى ألوهته وعبادته ، ولكن أخلص له العبادة وأفرد له الألوهة ، فإنه لا رب غيره ولا معبود سواه ، و إنك إن تجعل معه إلها غيره وتعبد معه سواه تصر ملوما على ما ضيعت من شكر الذى أنعم عليك بنعمه ، وشكر من لم يولك نعمة ، مخذولا لا ينصرك ربك بل يكلك إلى من عبدته معه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

و بعد أن ذكر الركن الأعظم فى الإيمان أتبعه بذكر شعائره وهى الأمور الآتية فقال :

(١) (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) أى وأمر ربك ألا تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، ولا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو .

(٢) (و بالوالدين إحسانا) أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وقد أمر الله بالإحسان إليهما للأسباب الآتية .

(١) شفقتهما على الولد و بذل الجهد فى إيصال الخير إليه و إبعاد الضر عنه جهد المستطاع ، فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

(ب) إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء فى الخبر أنه عليه السلام قال : « فاطمة بَضعة منى » .

(ح) إنهما قد أنعما عليه وهو فى غاية الضعف ونهاية العجز ، فوجب أن يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما كما قال الشاعر العربى يعدّد نعمه على ولده وقد عقه فى كبره :

غذوتك مولودا و مُنْتُك يافعا تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طُرِقت به دونى فعينىّ تُهمل
تخاف الردى نفسى عليك و إنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلتَ جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوّتى فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل

والخلاصة — إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ثم نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أوّلا بقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، ثم أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله: و بالوالدين إحسانا .

ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله :

(إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله — وجب عليك أن تشفق عليهما وتحنو لهما وتعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه، ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الخمسة الآتية :

(ا) ألا تتأفف من شىء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ، ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر عليه كما صبرا عليك فى صغرك .

(ب) ألا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر القليل أو الكثير .

(ح) أن تقول لهما قولا حسنا وكلاما طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه المروءة كأن تقول ياأبتاه و ياأماه ، ولا تدعوهما بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تحدق فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى الهداج قال : قلت لسعيد بن المُسَيِّب : كل ما ذكر الله تعالى فى القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ، فقال ابن المسيِّب : قول العبد المذنب للسيد الفظّ .

(د) أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله ، رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة ، ولله در الخفاجى إذ يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتى ما حال من يسأل من سائله
ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجا إلى عامله

وقوله: من الرحمة، أى أن يكون ذلك التذلل رحمة بهما، لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط ، فتذكّر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت به من الشفقة والحدب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا ذلك حال صغرك .

(٥) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كفاء رحمتهما لك فى صغرك وجميل شفقتهما عليك .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا .

وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها :

(١) إن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد معه فقال : أحىّ والداك ؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهد .

(٢) مارواه مسلم وغيره ـ لايجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ويعتقه.

(٣) ما روى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ العمل أحب إلى الله ورسوله ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أىّ ؟ قال بر الوالدين ، قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله .

وبر الأم مقدم على بر الأب لما روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك .

ولا يختص برهما بحال الحياة ، بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقى من بر أبوى شىء أبرّهما به بعد موتهما ؟ قال نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبلهما ، فهذا الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما .

والخلاصة — إنه سبحانه بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ منها جلود أهل العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفعهما بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن

يذل و يخضع لهما ، ثم ختمها بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه الخمسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بهما مقرونة بوحدانيته وعدم الشرك به .

ولما كان بر الوالدين عسيرا حذر من التهاون فيه فقال :

(ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) أى ربكم أيها الناس أعلم منكم بما فى نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم والبر بهم ، ومن الاستخفاف بحقوقهم والعقوق بهم ، وهو مجازيكم على حسن ذلك وسيئه ، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا وتعقدوا لهم فى نفوسكم عقوقا ، فإن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم وأطعتم ربكم فيما أمركم من البر بهم والقيام بحقوقهم عليكم بعد هفوة كانت منكم أو زلة فى واجب لهم عليكم ، فإنه تعالى يغفر لكم ما فرط منكم ، فهو غفار لمن يتوب من ذنبه ويرجع من معصيته إلى طاعته ويعمل بما يحبه ويرضاه .

وفى هذا وعد لمن أضمر البر بهم ووعيد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوقهم .

و بعد أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى فقال :

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى وأعط أيها المكلف القريب منك حقه من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن العشرة ، و إن كان محتاجا إلى النفقة فأنفق عليه مايسد حاجته ، والمسكين ذا الحاجة ، وابن السبيل وهو المسافر لغرض دينى ، فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

ولما رغب سبحانه فى البذل بين الطريق التى تتبع فى ذلك فقال :

(ولا تبذر تبذيرا) أى ولا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال فى معصيته تفريقا بإعطائه من لا يستحقه ونحو الآية قوله « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف فى المساجد مع مجاهد حول الكعبة

فرفع رأسه إلى أبى قبيس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله بسعد وهو يتوضأ ، فقال ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أفى الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار » .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طُهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال يا رسول الله : أقلل لى ، قال فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ، فقال حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها » .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة كما قال « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال « احْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى قرناءهم من الشياطين .

(وكان الشيطان لربه كفورا) أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه

جحودا لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه المبذرون أموالهم فى معاصى الله لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران ، قال الكرخى وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل اهـ .

وفى ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه فى غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن ترد عليهم انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا لينا جميلا وعدهم وعدا تطيب به قلوبهم ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شىء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟ ، ولقد أحسن من قال :

إلا يكن ورق يوما أجود به للسائلين فإنى ليّن العود
لا يعدم السائلون الخير من خلقى إما نوال وإما حسن مردود

ثم بين سبحانه الطريق المثلى فى إنفاق المال فقال :

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)

أى لا تكن بخيلا منوعا لا تعطى أحدا شيئا ، ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك،وتخرج أكثر من دخلك ، فإنك إن بخلت كنت ملوما مذموما عند الناس كما قال زهير :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله على قومه يستغن عنه ويذمم

ومذموما عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالك وقد أوجب الله عليك سد حاجتهما باعطاء زكاة أموالك .

وإن أسرفت فى أموالك فسرعان ما تفقدها فتصبح معسرا بعد الغنى ، ذليلا بعد العزة ، محتاجا إلى معونة غيرك بعد أن كنت معينا له ، وحينئذ تقع فى الحسرة التى تقطع نياط قلبك ويبلغ منك الأسى كل مبلغ ، ولكن أنّى يفيد ذلك وقد فات ما فات فلا ينفع الندم ولا تجدى العظة والنصيحة .

وخلاصة ذلك — اقتصد فى عيشك وتوسط فى الإنفاق ، ولا تكن بخيلا ولا مسرفا ، روى أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » وروى عن أنس مرفوعا : «التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهم نصف الهرم ، وقلة العيال أحد اليسارين » . وقيل حسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف .

وإجمال المعنى — لا تجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة عن الانبساط ، ولا تتوسع فى الانفاق فتصير نادما مغموما وعاجزا عن الانفاق لا شىء عندك ، فتكون كالدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا وإعياء .

ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذى يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال :

(إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه على حسب السنن

التى وضعها لعباده فى كسب المال وحسن تصرفهم فى جمعه بالوسائل والنظم التى وضعها فى الكون .

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إن ربك ذو خبرة بعباده ، فيعلم من الذى تصلحه السعة فى الرزق ومن الذى تفسده ؟ ومن الذى يصلحه الإقتار والضيق ؟ ومن الذى يفسده ؟ وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم ، فعليك أن تعمل بما أمرك به ونهاك عنه من بسط يدك فيما تبسط فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه ، فهو أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق ، وأبصرهم بتدبير شؤونهم .

وقصارى ذلك — إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأنعمتم فى النظر فى ذلك وجدتم أن من سننه تعالى الاقتصاد ، فاقتصدوا واستنوا بسنته .

و بعد أن بين أنه تعالى الكفيل بالأرزاق وهو الذى يبسط و يقدر نهاهم عن قتل الأولاد خشية الفقر فقال :

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم و إياكم) أى لا تئدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم .

وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء وفى ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة — إن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال :

(إن قتلهم كان خطئا كبيرا) أى إن قتلهم كان إثما فظيعا لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : «قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندّا وهو الذى خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزانى بحليلة جارك» .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمة أوامر الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما كان فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه به فقال :

(ولا تقربوا الزنا) نهى الله عباده عن القرب من الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلا عن مباشرته هو للمبالغة فى النهى عنه و بيان شدة قبحه ، ثم علل ذلك بقوله :

(إنه كان فاحشة وساء سبيلا) أى إنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفاسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرْج والمرْج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا وشهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها و بين الأزواج ، ولا يتم السكن والازدواج الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل و إعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

و إجمال ذلك — إن الزنا فاحشة وأى فاحشة لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا عن العرض ، وإنه سبيل سىء من قِبَل أنه يسوّى بين الإنسان والحيوان فى عدم اختصاص الذكران بالإناث .

و بعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال :

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) أى لا تقتلوا النفس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان، وقتل مؤمن معصوم عمدا كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

والسبب فى هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد فوجب حرمته لقوله : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » .

(٢) إنه ضرر ، والأصل فى المضارة الحرمة لقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » .

(٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود فقتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب فى المجتمع فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

(ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى ومن قتل بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه، و إما الدية لقوله تعالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى » الآية ولقوله عليه السلام يوم الفتح « من قتل قتيلا فأهله بين خِيرَتين ، إن أحبوا قتلوا و إن أحبوا أخذوا الدية » .

(فلا يسرف فى القتل) أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، إذ كانوا يقتلون القاتل و يقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا ، وأحيانا لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله رجلا شريفا

وفى الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .

(إنه كان منصورا) أى إن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : إن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفى الآخرة بتكفير خطاياه و إيجاب النار لقاتله ، وهذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل لأنها مكية .

و بعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ولذلك قال :

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد به حتى تستحكم قوة عقله وشبابه و إذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطونهم فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » .

و بعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر فقال :

(١) (وأوفوا بالعهد) أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، و يدخل فى ذلك ما بين العبد وربه ، وما بين العباد بعضهم و بعض ، والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

(إن العهد كان مسئولا) أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفيت به ، كما يقال لوائد الموءودة بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ ؟ » والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٢) (وأوفوا الكيل إذا كلتم) أى وأتموا الكيل للناس ولا تُخْسِروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قِبَلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان العدل دون شىء من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها .

ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال :

(ذلك خير) أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم وحب الثناء عليكم .

(وأحسن تأويلا) أى وأجمل عاقبة لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا وحصل لهم الثروة والغنى وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال :

(١) (ولا تقف ما ليس لك به علم) أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة :

(١) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لاتقل سمعتُ ولم تسمع ، ولا رأيتُ ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم.

(حـ) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال : « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » وفى الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفى سنن أبى داود « بئس مطية الرجل زعموا » إلا ماقام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة كما رخص النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك لمُعاذ حين بعثهُ قاضيا فى اليمن إذ قال له «بم تقضى ، قال: بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى » .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعا للهوى كما قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » .

ثم ذكر سبحانه تعليلا لذلك النهى فقال :

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى إن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وفى الخبر عن شكل بن حُمَيْد قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به فأخذ بيدى ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر قلبى وشر منيّ » (يريد الزنا) .

(٣) (ولا تمش فى الأرض مرحا) أى ولا تمش متبخترا متمايلا كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع

وإن كنت فى عز وحرز ومَنْعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

وخلاصة ذلك — تواضع ولا تتكبر فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر . ولا يخفى ما فى الآية من التقريع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها من الجعل مع الله إلها آخر وعبادة غيره والتأفف والتبذير وغل اليد وقتل الأولاد خشية الأملاق — مكروها عند ربك أى مبغوضا عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال صلى الله عليه وسلم « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر — إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر وترك تلك النواهى فقال :

(ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا (لا تجعل مع الله إلها آخر) الآية .

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) كرر هذا مع ما سلف للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة وهو مبدأ الأمر ومنتهاه، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال: فتقعد مذموما مخذولا ، ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

وأنت قد علمت فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة ، و إما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) .

شرح المفردات

الإصفاء بالشىء : جعله خالصا له ، وصرفنا : أى بينا ، ليذكروا : أى يتدبروا ويتعظوا ، والنفور: البعد من الشىء ، وابتغاء الشىء : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم .

المعنى الجملى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له نِدّا ونظيرا — قفى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قِحَتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا لله البنات مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له — ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

الإيضاح

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟) أى أخصكم ربكم بالذكور من الأولاد واتخذ من الملائكة إناثا وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم بل تئدونهن وتقتلونهن فتجعلون له ما لا ترضون لأنفسكم .

وخلاصة ذلك — إنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم عبدوهن ، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما ، ومن ثم قال :

(إنكم لتقولون قولا عظيما) فتفترون على الله الكذب وتنسبون إليه ما تستحقون عليه الإثم والعذاب ، وتخرقون قضايا العقول ، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على جعل عالى الأرض سافلها إناثا غاية فى الرخاوة .

ونحو الآية قوله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ

وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » .

ولما كان هذا الكلام غاية فى الوضوح والبيان ، ولا يخفى فهمه على إنسان ، ثم هم بعد ذلك أعرضوا عنه نبه إلى ذلك بقوله :

(ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) أى ولقد بينا فى هذا القرآن الآيات والحجج وضربنا لهم الأمثال وحذرناهم وأنذرناهم ليتذكروا ويتعظوا فيقفوا على بطلان ما يقولون — فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس — وهم مع ذلك لا يعتبرون ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنذر بل ما يزيدهم التذكير إلا نفورا و بعدا عن الحق وهربا منه .

ثم رد على هؤلاء الذين يشركون بربهم ويتخذون الشفعاء والأنداد وندد عليهم وسفه أحلامهم فقال :

(قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر : لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه — لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه و يبتغون لديه الوسيلة ، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم و بينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه و يأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة رسله وأنبيائه ونزه نفسه عن ذلك فقال :

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) أى تنزيها لله وعلوّا له عما تقولون أيها القوم من الفرية والكذب ، فهو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وفى الآية إيماء إلى وجود البون الشاسع بين ذاته وصفاته سبحانه ، و بين ثبوت

الصاحبة والولد والشركاء والأضداد ، للمنافاة التى لاغاية وراءها بين القديم والمحدث والغنىّ والمحتاج .

ثم بين سبحانه عظمة ملكه وكبير سلطانه فقال :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وألوهته كما قال أبو نواس :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبح ربه إما بالقول كقوله : سبحان الله ، و إما بدلالة أحواله على توحيد الله وتقديسه ، وغير العاقل لايسبح إلا بالطريق الثانى ، فهى تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن الحدوث فإن الأثر يدل على مؤثره .

(و إن من شىء إلا يسبح بحمده) أى وما شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله أى يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدته وقدرته وتنزهه عن لوازم الحدوث .

والخلاصة — إن كل الأكوان شاهدة بتنزهه عن مشاركته تعالى للمخلوقات فى صفاتها المحدثة .

(ولكن لاتفقهون تسبيحهم) أى ولكن لاتفهمون أيها المشركون تلك الدلالة ، لأنكم لما جعلتم مع الله آلهة فكأنكم لم تنظروا ولم تفقروا ، إذ النظر الصحيح والتفكير الحق يؤدى إلى غير ما أنتم فيه ، فأنتم إذاً لم تفقهوا التسبيح ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق .

(إنه كان حليما غفورا) فمن حلمه أن أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم بالله سواه وعبادتكم معه غيره ، ومن مغفرته لكم أنه لايؤاخذ من تاب منكم . أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال : «إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله و بحمده فإنها صلاة كل شيء و بها يرزق كل شيء » .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) .

شرح المفردات

الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، والمستور : أى الساتر كما جاء عكسه من نحو ماء دافق : أى مدفوق ، أن يفقهوه أى لئلا يفقهوه و يفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الآذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا أى مخبول العقل، فهو كقولهم : إن هو إلا رجل به جنة ، فضلوا : أى جاروا عن قصد السبيل .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هـذا فى مقام الألوهية وجدالهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم و إقامة الحجة عليهم و إيضاح السبيل لهم ـ والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبى صلى الله عليه وسلم وقولهم فيه تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون ، وحينا إنه شاعر .

روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم و يستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول

محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشىء ، وقال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقا ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العُزّى هو شاعر فنزلت هذه الآية .

الإيضاح

(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أى وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب ـ جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منا لهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم واجتراحهم الجرائر والمعاصى التى تظلم القلوب وتضع عليها الأغشية وتستر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه ، وأسراره وأحكامه وحكمه ، ومواعظه وعبره .

روى أنه عليه السلام كان إذا قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَىّ يصفّقون ويصْفِرون ويخلّطون عليه بالأشعار .

ثم بين السبب فى عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال :

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إنه تعالى جعل فى قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم ما يمنع من سماع صوته .

وخلاصة ذلك — إنا منعناهم فقهه ، والوقوف على كنهه ، فنبت قلوبهم عن فهمه ، ومجته أسماعهم ، فهم لامتناعهم عن قبول دلائله صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب ساتر .

ونسب الحجاب إلى نفسه ، لأنه خلاهم وأنفسهم ، فصارت تلك التخلية كأنها السبب فى وقوعهم فى تلك الحال ؛ ألا ترى أن السيد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتى ساءت حاله ، يقول أنا الذى أوصلك إلى هـذا إذ ألقيت حبلك على غاربك ، ولم أراقبك عن كثب .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » .

(وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) أى وإذا ذكرت ربك وحده فى القرآن وأنت تتلوه ، ولم تقل واللات والعزّى انفضوا من حولك وهربوا نافرين استكبارا واستعظاما لأن يذكر الله وحده .

(نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزء والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارّون ، فبعضهم يقول مجنون ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول : ما اتبعتم إلا رجلا قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء ، وهل من خير لكم فى اتباع أمثاله المجانين.

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى تأمل وانظر أيها الرسول ، كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فحادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه .

وفى هذا من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) .

شرح المفردات

الرفات : ما تكسر وبلى من كل شىء ، يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رءوسهم : أى سيحركونها

استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغض نغضا إذا تحرك ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، فتستجيبون : أى تجيبون الداعى .

المعنى الجملى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات ، والنبوات ، والبعث والجزاء ، والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات وفندها بما لامجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه ، ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وتصديق ما يقول .

الإيضاح

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) أى وقال الذين لايؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاما فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلينا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا ـ خلقا جديدا كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم و يعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم و إنشائه ألهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا على أى حال كانوا عظاما أو رفاتا أو حجارة و حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

(قل كونوا حجارة أو حديدا. أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) أى قل كونوا حجارة

أو حديدا أو خلقا مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاما بالية وقد كانت قبلُ حيّة ، والشىء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد .

وخلاصة هذا — إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء ، وهذا كما يقول القائل للرجل : أتطمع فىّ وأنا فلان ؟ فيقول : كن ابن من شئت ، كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى — إن هذا مبالغة أيما مبالغة فى قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال لو كنت عين الحياة فالله يميتك ، ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

و بعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هـذه الحال حجارة أو حديدا من أى معيد . كما حكى عنهم بقوله :

(فسيقولنا من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة) أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقا للحق و إزاحة للاستبعاد و إرشادا إلى طريق الاستدلال : الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم ترابا لم يشَمّ رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية و يعيدها إلى ما كانت عليه أولا ؟ بلى إنه سبحانه على كل شىء قدير .

ثم بين جلت قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال :

(فسينغضون إليك رءوسهم) قال أبو الهيثم يقال لمن أُخْبِر بشىء فحرك رأسه إنكارا له : قد أنغض ، أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكذيبا ، ثم يسألون .

(و يقولون متى هو ؟) أى متى هذا البعث ، وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقا جديدا كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقوله « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

(قل عسى أن يكون قريبا) أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحدا من خلقه ، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، لكن الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ولله الحمد فى كل حال ، وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله أى ولله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعا « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا فى القبر ولا فى الحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب ، يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

(وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم ما أقمتم فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ونحو الآية قوله « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقوله « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ

يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) .

شرح المفردات

ينزغ : يفسد ويهيج الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك ، فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : قل الذى فطركم أول مرة ـ أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار ، فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على الإسلام ، فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن فى السموات والأرض فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

الإيضاح

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم ، الكلام الأحسن للاقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله « وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ، روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ، ذلك أن رجلا شتمه فسبه عمر وهمّ بقتله فكادت تثير فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن الشيطان ينزغ بينهم) أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال ، ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولا يشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار » وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى رَفْلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى هاهنا ووضع يده على صدره » .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله :

(إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا) أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان « ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » وقال « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

ثم فسر سبحانه التى هى أحسن بما علمهم من النصفة بقوله :

(ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم بتوفيقكم للايمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الايمان فتموتوا على شرككم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله — إلى أن ذلك مما يجر إلى توليد الضغينة فى النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال :

(وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا تقسر الناس على ما يرضى الله ، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ، ومر أصحابك بذلك ، فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوى الأفئدة ، ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال :

(وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) وبأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فيختار منهم لنبوته والفقه فى دينه من يراه أهلا لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته . ونحو الآية قوله « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفى هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبيا ، وأن يكون أولئك الجوّع العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفى ذكر من فى السموات ردّ لمقالهم حين قالوا «لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ » وفى ذكر من فى الأرض رد لمقالهم حين قالوا « لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بما لهم من الفضائل النفسية ، والمزايا القدسية ، وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة ومزية ، ففضلنا

إبرهيم باتخاذه خليلا ، وموسى بالتكليم ، ومحمدا بالقرآن الذى أعجز البشر والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الأحزاب فى قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أفضل من بقيتهم ، ولا خلاف فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

(وآتينا داود زبورا) أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك ، بل كان بما آتاه الله من الكتاب ، وأفرده بالذكر لأنه كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ » وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) .

شرح المفردات

الزعم : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، لايملكون : أى لا يستطيعون كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، يدعون : أى ينادون ، الوسيلة : القربة بالطاعة والعبادة ، محذورا : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، فى الكتاب : أى فى اللوح المحفوظ ، والآيات : هى ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ومبصرة : أى ذات بصيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها فظلموا بها : أى فكفروا بها وجحدوا ، أحاط بالناس : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، والرؤيا هى ماعاينه صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة : هى شجرة الزقوم ، والطغيان : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعونى وحدى لأنى أنا المالك لنفعكم وضرهم دونهم ؛ ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى

واغتنام الأموال وأخذ الجزية ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أولم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ، ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم ، كما كان ذكر شجرة الزقوم فى قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » ثم تلا هذا بذكر تماديهم فى العناد وأنه كلما خوفهم وأنذرهم ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوهما ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم؟ إنهم لا يقدرون على دفع شىء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم ، روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية .

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أى هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم - يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة. أخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ؟ ثم قرأ هذه الآية » .

(أيهم أقرب) أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه ، وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم ، فكيف تعبدونهم ؟ .

(ويرجون رحمته ويخافون عذابه) أى ويرجون بأعمالهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال :

(إن عذاب ربك كان محذورا) أى عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال :

(وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وقال : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً » وقال : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » الآية .

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب المقدر وماهو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هى سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هـذا العذاب على هذه الأمة لا يكون، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم ، فلم يجبهم إلى ماطلبوا ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصة — إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .

روى أحمد عن ابن عباس قال : «سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال بل نستأنى بهم وأنزل الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية » .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها» .

ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب ، فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال :

(وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناها ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ومنعوها شِرْبها وقتلوها ، فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رُجفت (زلزلت) فى عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه ، وروى أن المدينة زلزلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ، وفى الحديث الصحيح « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ـ ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا »

ثم قال سبحانه محرضا رسوله على إبلاغ رسالته ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس.

(و إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته ، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك ، فلا يقدرون على إيصال الأذى إليك كما قال : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وخلاصة ذلك — إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه . قال الحسن : حال بينهم و بين أن يقتلوه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس) أى وما جعلنا الرؤيا التى أريناها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختبارا للناس فأنكرها قوم وكذبوا بها وكفر كثير ممن كان آمن به ، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة ، والعرب تقول رأيته بعينى رؤية ورؤيا .

(والشجرة الملعونة فى القرآن) أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس، فإنهم حين سمعوا : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ » اختلفوا فقوم ازدادوا

إيمانا ، وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل قال : إن ابن أبى كبشة (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : إن محمدا يخوفنا بالزقوم وما الزقوم إلا التمر والزُّبْدُ ، فتزقموا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لاتحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لاتؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامس النار نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو ⅔ منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين ، فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة .

وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، للعن الكفار الذين يأكلونها ، توسعا فى الاستعمال وهو كثير فى كلام العرب .

(ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ، فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التى اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا فى الأرض ، ونعل بهم مافعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطامة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة ، من الحزن لطعن الكفار إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بمثل هذه المعجزات التى أتى بها من قبلك من الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) .

شرح المفردات

أرأيتك : أى أخبرنى ، هـذا الذى كرّمت على : أى أهذا الذى كرمته على . قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكنّ من قولهم حنك الدابة واحتنكها: إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، اذهب : أى امض لشأنك فقد خليتك وماسوّلت لك نفسك ، وموفورا : أى مكملا لايدخر منه شىء من قولهم فِرْ لصاحبك عرضه فِرَة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لايتق الشتم يشتم

و يقال أفزّه الخوف واستفزه : أى أزعجه واستخفه ، بصوتك : أى بدعائك إلى معصية الله ، وأجلب عليهم : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، و يقال أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه « ياخيل الله اركبى » والرَّجْل :واحده راجل كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق، والوكيل: الحافظ والرقيب.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسدا على ما آتاه الله من النبوة ، وكبرا عن أن ينقادوا إلى الحق — بين أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت ؛ ألا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر ؛ والحسد بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق .

الإيضاح

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر. الإسراء . الكهف . طه . ص . وقد تقدم الكلام فيها فيما سلف من تلك السور؛ وها نحن أولاء نفسرها فى هذه السورة .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له وقال أأسجد لمن خلقته من الطين وأنا مخلوق من النار كما جاء فى الآية الأخرى : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فكفر بنسبة ربه إلى الجور بتخيله أنه أفضل من آدم من قبل أن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وقد فاته أن الطين أنفع من النار ؛ ولئن سلم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد ، والله هو الذى أوجدها من العدم ، ويفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض .

و (قال) أيضا لربه جرأة وكفرا والرب يحلم ويُنْظِر .

(أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟) أى أخبرنى أهذا الذى كرمته على ؟ وهل يوجد مايدعو إلى تفضيله على ، وهذا كلام قاله على وجه التعجب والإنكار .

(لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) أى لئن أنظرتنى لأضلنّ ذريته إلا قليلا منهم ، وهذا القليل هم الذين عناهم الله بقوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ولعل إبليس حكم هذا الحكم على ذرية آدم إما بالسماع من الملائكة حين قالوا « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » أو بالقياس على ما رأى من آدم حين وسوس له فلم يجد له عزما .

ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النظرة وأخره إلى يوم الوقت المعلوم .

(قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أى قال له سبحانه : امض لشأنك الذى اخترته ، ولما سولته لك نفسك ، وقد أخرتك ، وهذا كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد .

فمن أطاعك من ذرية آدم وضل عن الحق ، فإن جزاءك على دعائك إياهم ، وجزاءهم على اتباعهم لك وخلافهم أمرى جزاء موفور لاينقص لكم منه شىء ، بما تستحقون من سيىء الأعمال ، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

(واستفزز من استطعت منهم بصوتك) أى قال تعالى مهددا له : استخفّ وأزعج بدعائك إلى معصية الله ، ووسوستك من استطعت من ذرية آدم .

(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى واجمع عليهم من ركبان جندك ومشاتهم من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصرف عن طاعتى ، ومثل هذا الأسلوب يراد به التشمير فى الأمر والجد فيه والتسلط على من يغويه ، وكأن فارسا مغوارا وقع

على قوم فصوّت بهم صوتا مزعجا من أماكنهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

قال مجاهد : ما كان من راكب يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل فى معصية الله فهو من رجّالة إبليس . وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، و إنما يراد بهما الأتباع والأعوان من غير ملاحظة لكون بعضهم ماشيا و بعضهم راكبا .

(وشاركهم فى الأموال) بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة و إنفاقها فى غير الطرق التى أباحها الدين ، و يشمل ذلك الربا والغصب والسرقة وسائر المعاملات الفاسدة .

قال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث و ينفقوها فى حرام .

(والأولاد) بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب مالا يرضى الله .

و إجمال القول فيه — إن كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه ، أو بالزنا بأمه أو بوأده أو بقتله أو غير ذلك فقد شاركه إبليس فيه مَن وُلد ذلك الولد له أو منه .

(وعدهم) بما يستخفهم و يغرهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لاجنة ولانار أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » أو بالتسويف فى التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك — إنه يغويهم بأن لاضرر من فعل هذه المعاصى ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، و إنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها ، فتفويتها غبن وخسران .

خذوا بنصيب من سرور ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم

وينفرهم من الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لا رجعة بعد هذه الحياة ، فهى عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعه .

(وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) لأنه لا يغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة وباطل يزينها لهم ويلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ » .

(إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى إن عبادى الذين أطاعونى فاتبعوا أمرى وعصوك ، ليس لك عليهم تسلط ، فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر ، فإنى قد وفقتهم بالتوكل علىّ ، فكفيتهم أمرك .

(وكفى بربك وكيلا) فهم يتوكلون عليه ويستمدون منه العون فى الخلاص من إغوائك ووسوستك .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه من مواقع الضلال ، وإنما المعصوم من عصمه الله .

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) .

شرح المفردات

يزجى: أى يسوق حينا بعد حين ؛ والمراد أنه يجريه ، وفضله: هو رزقه ، والمراد بالضر: خوف الغرق بتقاذف الأمواج، وضل: غاب عن ذكركم ، والخسف والخسوف: دخول الشىء فى الشىء ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة: أى غائرة الماء ، وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ، والحاصب : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ، والقاصف : الريح تقصف الشجر وتكسره ، والتبيع : النصير والمعين ، وحملته على فرس : أى أعطيته إياها ليركبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالئ للعبد المؤمن من غواية إبليس ، وأنه لا يستطيع أن يمسه بسوء — قفى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى على الإنسان التى كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران ، وهو الذى يرى دلائل قدرته فى البر والبحر ، فهو الذى يزجى له الفلك فى البحر لتنقل له أرزاقه وأقواته من بعيد المسافات ، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة إذا مسه الضر دعا ربه ، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان ، فهل يأمن أن يخسف به الأرض ، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر ، أوقاصفا من الريح فى البحر فيغرقه بكفره ، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق ، وبسط له الرزق ، أفلا يفرده بالعبادة ويخبت له كفاء تلك النعم المتظاهرة عليه ؟

الإيضاح

(ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما) أى إن ربكم أيها القوم هو القادر الحكيم الذى يجرى لكم لنفعكم السفن فى البحر بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أوالكهربية لتسهيل نقل أقواتكم وحاجكم من إقليم إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أدناها ، والعكس بالعكس ، ونقل أشخاصكم من قطر إلى قطر ابتغاء للرزق أو للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع مما يرشد إلى باهر القدرة ، ووافر النعمة عليكم إنه كان بكم رحيما ، إذ سهل مافيه الفوائد المرجوة لكم فى هذه الحياة .

ثم خاطب الكفار بقوله :

(و إذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى و إذا نالتكم الشدة والجهد فى البحر ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر فلا تذكرون إلا الله ، ولا يخطر على بالكم سواه لكشف ما حل بكم .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين له الدين .

(فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى ومن عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه فى البحر أعرضتم عن الإخلاص ورجعتم إلى الإشراك به كفرا منكم بنعمته .

ثم علل هذا الإعراض بقوله :

(وكان الإنسان كفورا) أى وكانت سجية الإنسان وطبيعته أن ينسى النعم و يجحدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف — إنهم حين الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وحين الرخاء يعرضون عنه .

ثم حذر من كفران نعمته فقال :

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟) أى أفحسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه ، فهو إن شاء خسف بكم جانب البر وغيبه فى أعماق الأرض وأنتم عليه ، و إن شاء أمطر عليكم حجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا تكلون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره ، جل وعلا .

وخلاصة ذلك — إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم من فوقكم بريح يرسلها عليكم فيها الحصباء يرجمكم بها، فيكون أشد عليكم من الغرق فى البحر .

(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفتم بتوحيدنا فى البحر حتى خرجتم إلى البر — أن يعيدكم فيه مرة أخرى فيرسل عليكم ريحا تقصف السوارى وتغرق المراكب بسبب كفركم و إعراضكم عن الله ، ثم لا تجدوا لكم نصيرا يعينكم و يأخذ بثأركم .

قال قتادة : أى لا نخاف أحدا يتبعنا بشىء مما فعلنا ، يريد . إنكم لا تجدون ثائرا يطلبنا بما فعلنا انتصارا منا أو دركا للثأر من جهتنا ، وفى معنى الآية قوله : « فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وفى الآية وعيد أيما وعيد فكأنه قيل : ننتقم منكم من غير أن يكون لكم نصير يدفع عنكم شديد بأسنا .

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أى ولقد كرمنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات وحسن التفكير فى وسائل المعاش والتسلط على ما فى الأرض وتسخير مافى العالم العلوى والسفلى ، وحملناهم على الدواب والقطر والطائرات والمطاود (واحدها منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم

ألا يشركوا بربهم شيئا ، ويرفضوا ماهم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .

والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة — إن فى الآية حثا للانسان على الشكر ، وألا يشرك بربه أحدا ، لأنه سخر له ما فى البر والبحر وكلأه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك لتجرى فى البحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) .

شرح المفردات

إمامهم: هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ» والفتيل: الخيط المستطيل فى شق النواة، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ، ومثله النقير والقطمير ، أعمى: أى أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته ، والركون إلى الشىء: الميل إلى ركن منه ، ضعف الحياة: أى عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا ، وضعف الممات: أى

عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر و بعد البعث، ونصيرا: أى معينا يدفع عنك العذاب، لا يلبثون : أى لا يبقون ، خلفك : أى بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أى سننا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أى تغييرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أن الله أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضله عليهم تفضيلا — فصل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

الإيضاح

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أى اذكر لهم ذلك اليوم يوم ندعو كل أناس ومعهم كتابهم الذى فيه أعمالهم التى قدموها ، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة فلا يقال يابن فلان ، وإنما يقال ياصاحب كذا كما قال تعالى « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » .

والخلاصة : إن المعول عليه يومئذ الأعمال والأخلاق والآراء والعقائد النفسية التى تغرس فى النفوس لا الأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية .

(فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أى فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح ، ونحو الآية قوله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ » .

(ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، وقد ثبت

فى علم الكيمياء أن وزن الذرات التى تدخل فى كل جسم هى بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحدة فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته فى خلقه ! .

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبيناته التى وضعها فى صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها — فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذى كان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبي ، وكما يثمر النخل الثمر والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح على حسب ما يرى ، وما الثمر إلا على حسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لاهيا فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا وأبعد مدى فى الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقى فيه مثالبه ومثالبه ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

وبعد أن ذكر سبحانه درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء ، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم فقال :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) أى وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك فى الفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام ، لتتقوّل علينا غير الذى أوحيناه إليك مما اقترح عليك .

أخرج ابن إسحق وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس « أن أمية بن خلف وأبا جهل ورجالا من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح

بآلهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم فأنزل الله هذه الآية إلى قوله نصيرا .

وعن سعيد بن جبير قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه فمنعته قريش وقالوا : لاندعك تستلم حتى تلمّ بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : ما علىّ أن ألم بها بعد أن يَدَعونى أستلم الحجر والله يعلم إنى لها كاره ، فأبى الله ذلك وأنزل عليه هذه الآية :

(وإذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك خليلا ووليا لهم وخرجت من ولايتى .

(ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يرومون .

وخلاصة ذلك — إنك كنت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحيل والخداع ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لم يهم بإجابتهم ولم يقرب من ذلك .

ثم توعده على ذلك أشد الوعيد فقال :

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهو صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة ، لأنهم يتبعونهم .

ونظير ذلك من وجه ما جاء فى نسائه صلى الله عليه وسلم من قوله « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

وخلاصة ذلك — إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت على

الركون همّك ، لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ، ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة .

وقد ذكروا فى حكمة هذا ـ أن الخطير إذا ارتكب جُرما وخطا خطيئة يكون سببا فى ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به ، فكأنه سن ذلك ، وقد جاء فى الأثر ـ « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

(ثم لا تجد لك علينا نصيرا) أى ثم لا تجد من يدفع العذاب أو يرفعه عنك .

روى عن قتادة أنه قال : « لما نزل قوله: و إن كادوا ليفتنونك الخ قال صلى الله عليه وسلم: اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » فينبغى للمؤمن أن يتدبرها حين تلاوتها ، ويستشعر الخشية ، ويستمسك بأهداب دينه ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

(و إن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) أى ولقد كاد أهل مكة يزعجونك ويستخفونك بعداوتهم ومكرهم من الأرض التى أنت فيها ليخرجوك منها ، بما فعلوه من حصرك والتضييق عليك ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار ذلك سببا لخروجه صلى الله عليه وسلم .

(و إذا لايلبثون خلافك إلا قليلا) أى ولو استفزوك فخرجت لا يبقون بعدك إلا زمانا قليلا .

وفى هذا وعيد لهم بإهلاكهم بعد خروجه بقليل ، وقد تحقق ذلك بإفناء صناديد قريش فى وقعة بدر لثمانية عشر شهرا من ذلك التاريخ .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم ما لاقبل لهم به ، ومن ثم قال تعالى: « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » الآية .

(ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى إن ما أجرى الله به العادة لايتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

شرح المفردات

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والغسق : شدة الظلمة ، وقرآن الفجر : أى صلاة الصبح ، كان مشهودا : أى تشهده شواهد القدرة و بدائع الحكمة و بهجة العالم العلوى والسفلى ، فمن ظلام حالك أزاله ضوء ساطع ونور باهر ، ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرائى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامس يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ، و يقظة النوام وحركتهم على ظهر البسيطة وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس ، والتهجد :

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أى فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أى زال واضمحل ، نأى بجانبه : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره ، وشاكلته : أى مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويئوسا : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله ، وأهدى سبيلا : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به — أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ، وألا يبالى بسعيهم وألا يلتفت إليهم ، فإنه يدفع مكرهم وشرهم ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوّا .

الإيضاح

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أى أدّ الصلاة المفروضة عليك بعد دلوك الشمس وزوالها إلى ظلمة الليل ، ويشمل ذلك الصلوات الأربعة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح ، وقد بينت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف قرنا بعد قرن .

وقد تقدم فى سورة البقرة أن المراد بإقامة الصلاة أداؤها على الوجه الذى سنه الدين ، والنهج الذى شرطه من توجيه القلب إلى مناجاة الرب والخشية منه فى السر والعلن ، مع اشتمالها على الشرائط والأركان التى أوضحها الأئمة المجتهدون ؛ والصلاة لب العبادة لما فيها من مناجاة الخالق والإعراض عن كل ما سواه ودعائه وحده ، وهذا هو مخ كل عبادة ، وفى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى فى الفجر تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار وتشهدها جميعا ، ثم يصعد أولئك ويقيم هؤلاء ، روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » وقد يكون المراد كما قال الرازى - إن الانسان يشهد فيه آثار القدرة وبدائع الحكمة فى السموات والأرض ، فهناك الظلام الحالك الذى يزيله النور الساطع ، وهناك يقظة النوم بعد الخمود والغيبوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة فى الملك والملكوت ، فكل العالم يقول بلسان حاله أو مقاله « سُبّوح قدوس ، رب الملائكة والروح » .

(ومن الليل فتهجد به) أى واسهر بعض الليل وتهجد به ، وهو أول أمر له بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة . روى مسلم عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال صلاة الصبح » وقد ثبت فى صحيح الأحاديث عن عائشة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بعد نومه .

(نافلة لك) أى إنها مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهى فريضة عليك ومندوبة فى حق أمتك .

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى افعل هذا الذى أمرتك ، لتقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة فى ذلك اليوم .

أخرج النسائى والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : « يجمع الله الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر حفاةً عراةً كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فينادى يا محمد ، فيقول (لبيك وسعديك والخير فى يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت) فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله » اه .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، ومامن نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » الحديث .

وسر هـذا — أن الهداة فى الأرض وهم الأنبياء ومن سلك نهجهم من الأئمة والعلماء لاتشرق قلوبهم إلا بتوجههم إلى الله فى أوقات الصلوات ، فإذا قاموا للخلق داعين أشرقت مرايا نفوسهم الصافية على من يدعونهم من العباد فتضىء نفوسهم فيستجيبون لدعوتهم ويكون لهم المقام المحمود بينهم والثناء العظيم الذى هم له أهل ، إلى أنهم يحسون فى أنفسهم سرورا ولذة وبهجة ورضا ، فيحمدون مقامهم ، كما حمدهم الناس من حولهم ، والله والملائكة من فوقهم .

لاجرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة ، إذ لاشفاعة فى الآخرة إلا على مقدار ما أوتى المشفوع له فى الدنيا من علم وخلق ، ولله فى الشفاعة ما يشاء من غفران و إعلاء درجات .

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) أى وقل داعيا : رب أدخلنى فى كل مقام تريد إدخالى فيه فى الدنيا وفى الآخرة مدخلا صادقا أى يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك ، وأخرجنى من كل ماتخرجنى منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق .

وخلاصة ذلك — أدخلنى إدخالا مرضيا كإدخالى المدينة مهاجرا ، و إدخالى مكة فاتحا و إدخالى فى القبر حين الموت ، وأخرجنى إخراجا محفوظا بالكرامة والرضا كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال :

(واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى واجعل لى تسلطا بالحجة والملك ، فأقنع المستمعين للدعوة بالحجة ، ويكون للإسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر.

وقد أجاب الله دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس كما قال : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ » .

ثم أمره أن يخبر بالإجابة بقوله :

(وقل جاء الحق وزهق الباطل) أى قل للمشركين مهددا لهم : إنه قد جاءهم الحق الذى لامرية فيه ، ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، واضمحل باطلهم وهلك ، إذ لاثبات له مع الحق كما قال: « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » .

(إن الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا لاثبات له فى كل آن .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: « دخل النبى صلى الله عليه وسلم

مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد .

وفى رواية للطبرانى والبيهقى عن ابن عباس « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ـ حتى مر عليها كلها » .

(وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى وننزل عليك أيها الرسول من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة وتزول أمراض الشدة والنفاق ، والزيغ والإلحاد ، وهو أيضا رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض ، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلون الجنة وينجون من العذاب ، وفى الخبر « من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

(ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدا عن الإيمان وازدادوا كفرا بالله ، لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون كما قال : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال : «وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » .

قال قتادة فى قوله : (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أى لا ينتفعون به ولا يحفظونه ولا يعونه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين اهـ .

(و إذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى و إذا أنعمنا على الإنسان بمال وعافية وفتح ونصر ونال ما يريد ـ أعرض عن طاعتنا وعبادتنا ونأى بجانبه ، وهذا كقوله « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » وقوله « فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » .

(و إذا مسه الشر كان يئوسا) أى و إذا أصابته الجوائح وانتابته النوائب كان يئوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك ، ونحو الآية قوله « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ » وقوله « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

ولما ذكر حالى العُمى والمهتدين ختم القول ببيان أن كلا يسير على مذهبه فقال :

(قل كلٌّ يعمل على شاكلته) أى قل إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته وحاله فى الهدى والضلال ، وما طبع عليه من الخير والشر .

(فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى فربكم أعلم من كل أحد بمن منكم أوضح طريقا واتباعا للحق ، فيؤتيه أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ، لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة ، وبمعنى الآية قوله « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » ولا يخفى ما فى الآية من تهديد شديد ووعيد للمشركين .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

شرح المفردات

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

(١) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ» ، ولما بعده من قوله «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» وقوله « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » . ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(٢) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ » وقوله « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وقال جبريل « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

(٣) الروح الذى يحيا به بدن الإنسان ـ وهذا قول الجمهور ـ ويكون ذكر الآية بين ماقبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق إلى معرفته ، ويؤيد هذا ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية » .

الإيضاح

(ويسألونك عن الروح) الذى يحيا به البدن ، أقديم هو أم حادث ؟

(قل الروح من أمر ربى) الأمر واحد الأمور أى الروح شأن من شؤونه تعالى حدث بتكوينه وإيداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه لايعلمه إلا هو ، لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلم من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لها إدراك ما هو غير مادى كالروح .

وللعلماء فى حقيقة الروح أقوال كثيرة أولاها بالاعتبار قولان :

(١) إن الروح جسم نورانى حى متحرك من العالم العلوى مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سارٍ فيه سريان الماء فى الورد والدهن فى الزيتون والنار فى الفحم ، لايقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، واختاره الرازى وابن القيم فى كتاب الروح .

(٢) إنه ليس بجسم ولاجسمانى ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالى وأبو القاسم الراغب الأصفهانى .

ثم أكد عدم علمه بها بقوله :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، ومن ثم قالوا : من فقد حسا فقد علما .

روى أنه لما نزلت الآية قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فنزل قوله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً» .

وخلاصة ذلك — إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، والذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه .

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

شرح المفردات

وكيلا : أى ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه ، وظهيرا : أى معينا فى تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله ، وصرفنا : كررنا وردنا ، والكفور : الجحود .

المعنى الجملى

بعد أن امتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده — امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنة الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه منه ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم و بين هدى الدين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم على الناس .

الايضاح

لما ذكر سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا ، بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا نمحونّ القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا ، وتصير كما كنت ، لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبرانى والبيهقى فى جماعة آخرين .

وعن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا تترك منه آية فى قلب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء ثم قرأ هذه الآية » .

وعنه أنه قال : ذهاب القرآن رفعه من صدور قارئيه .

(ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لا تجد ناصرا ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيّما لك فيمنعنا من فعل ذلك بك .

(إلا رحمة من ربك) أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما تسهيل ذلك العلم عليهم ؛ ثانيهما إبقاء حفظه .

(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصيّرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاما ونحو ذلك ،

لا يأتون بمثله وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لانظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى وأقاصيص الأولين والجنة والنار ليدبروا آياته و يتعظوا بها .

(فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم وأفحموا ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها الله بقوله :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ

اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ؛ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

شرح المفردات

الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها ، جنة : أى بستانا تستر أشجاره ما تحتها من الأرض ، كسفا: واحدها كسفة كقطع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا: أى مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله الزينة وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى: أى تصعد ، مطمئنين : أى ساكنين مقيمين فيها ، وخبت : أى سكن لهبها ، والسعير: اللهب ، وكفورا أى جحودا للحق ،خشية الإنفاق : أى خوف الفقر ، والقتور: الشديد البخل .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم- أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعنتون فى أذيال الحيرة فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس « أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة فأتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسيِّر جبالها لنتقع بأرضها ، وفجر لنا فيها نهرا وعيونا نزرع فيها ، فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتى قومك بما يسألونك ؟ فقال لا أستطيع ، قالوا إن كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب ، فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا والذى يُحلف به ، لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا ؟

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشرا رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من قومه بأن الهداية والإيمان بيد الله ولا قدرة له على شىء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى لهم وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ودسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى ، وإنكار البعث والحساب وهم يعلمون أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون وتكثير الأموال واتساع المعيشة لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد ، فالإنسان بطبعه شحيح كزّ بخيل.

الإيضاح

علمت مما سلف أنهم طلبوا منه آية من ست ، وها هى ذى :

(١) (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » الآية .

(٢) (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

(٣) (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) تقول العرب : جاءنا بثريد كسف أى قطع من الخبز : أى أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت فى قولك : « أَوْ تُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — أو تسقط السماء علينا متقطعة ، ونحو الآية قوله: « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : « أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

(٤) (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى أو تأتى بالله والملائكة تقابلهم معاينة ومواجهة قاله مجاهد وعطاء ، ونحو الآية قولهم : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

(٥) (أو يكون لك بيت من زخرف) أى أو يكون لك بيت من ذهب ، روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

(٦) (أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولن نصدقك من أجل رقيك وحده ، بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك .

(قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم على حسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك — سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا؟)

أى وما منع مشركى قريش وهم من حكمت أباطيلهم — من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة .

ونحو الآية قوله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » وقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » الآية . وقال فرعون وملؤه : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ؟ » وكذلك قالت الأمم لرسلهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق منها إلى المصلحة بقوله :

(قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتلقى الشرائع منهم ـ لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلّمه ، ولكن طبيعة الملَك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب ، والتفاهم معهم لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوسا زكية ، وأيدهم بروح قدسية ، وجعل لهم ناحية مَلَكية بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة ، وجليل تلك النعمة بقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ» وقوله : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ»

وإجمال القول فى ذلك — أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة كما قال تعالى جدّه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دحْية الكلبى مرارا عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وعليه وعثاء السفر فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

(قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) أى قل لهم : إن الله لما أظهر المعجزة على وَفق دعواى كان ذلك شهادة منه على صدقى ، ومن شهد له الله فهو صادق ، فادّعاؤكم أن الرسول يجب أن يكون ملكا تحكم منكم وتعنت .

وخلاصة ذلك — إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال سبحانه : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لامعقب لحكمه ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شىء فقال :

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ماجئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشد ، ومن يضلله لسوء اختياره وتدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق و يمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم .

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما وصمّا) أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور — عميا و بكما وصما كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون

ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون مايقرّ أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم كما قال : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « قيل يارسول الله ، كيف يمشى الناس على وجوههم قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » .

وروى الترمذى : «إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر: مشاة، وركبانا، وعلى وجوههم » .

وإنا نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات وهوامّ الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه فى الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

والخلاصة — إنهم يبعثون فى أقبح صورة وأشنع منظر قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ » .

(مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم ، كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ما تتعلق به وتحرقه ، زدناها لهبا وتوقدا بأن نعيدهم إلى ما كانوا عليه فتستعر وتتوقد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شىء صارت جمرا تتوهج فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم اهـ .

وكأن هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكررها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث أنكروها برهانا .

ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته فقال :

(ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم : أبعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرة ـ استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداعا على غير مثال سابق وأقامهما بقدرته ـ قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لايقدر على إعادتهم ، والإعادة أهون من الابتداء .

و بعد أن ثبت أن البعث أمر ممكن الوجود فى نفسه ، أردف ذلك بأن لحصوله وقتا معلوما عند الله فقال :

(وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لابد من انقضائها، لايعلمها إلاهو كما قال : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ » .

وخلاصة ذلك — إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لاشك فيه ، فلا وجه لإنكاره .

(فأبى الظالمون إلا كفورا) أى و بعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) المراد من الإنفاق هنا الفقر كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة وإليه ذهب الراغب فقال : يقال أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى ، أى قل لهم أيها الرسول : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الفقر : أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لاتنفرغ ولا تنفد أبدا .

وقصارى ذلك — إنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لايجيبكم إلى ما طلبتم من نبيّه صلى الله عليه وسلم من بساتين وعيون تنبع ، لابخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم و يضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ومن ثم لم ينزل مااقترحتموه .

(وكان الإنسان قتورا) أى وكان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه كما قال «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء (أخذ) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض ما فى يمينه » .

و إجمال المعنى — إن الله لم يجب محمدا إلى ما طلبتم ، لا هوانا لنبيه ، ولا لأنه ليس بنبى ، ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كان وفير العطاء إذا نزل على غير وجهه مصايب على الناس ، فأما أنتم فمنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وادّارستموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلقه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ . وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) .

شرح المفردات

مسحورا : أى مخبول العقل ، بصائر : أى حججا و بينات واحدها بصيرة أى مبصرة بينة ، مثبورا : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد ، قال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » أن يستفزهم : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها ، واللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى من شريف ودنىء ومطيع وعاص وقوى وضعيف ، وكل شىء خلطته بغيره فقد لففته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا ـ ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتم وأعظم منه ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات وكفاكم الآيات العلمية التى أنزلها على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك

فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

الإيضاح

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه حين أرسل إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها كما قال تعالى « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ » وقال « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

وقد ذكر سبحانه فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

(١) إنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحا .

(٢) انقلاب العصا حية .

(٣) تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

(٤) اليد البيضاء .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم .

(١٠) شق البحر .

(١١) انفلاق الحجر فى قوله « أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » .

(١٢) إظلال الجبل فى قوله « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ » .

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

(١٤ ، ١٥) الجدب ونقص الثمرات فى قوله « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ » .

(١٦) الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع . أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور

وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس إنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبى فنسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال عليه السلام : لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ، فقبّلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبى ، قال فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبى ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود » .

قال الشهاب الخفاجى وهذا هو التفسير الذى عليه المعول فى الآية .

ثم خاطب نبيه فقال :

(فاسأل بنى إسرائيل) أى اسأل بنى إسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك كعبد الله بن سلام وأصحابه سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنينتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

(إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا) أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إنى لأظنك يا موسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأى .

(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التى أريتكها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لى على صدق وصحة قولى إنى رسول الله ، يعنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى

بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها أن من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض .

(وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا) أى وإنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

(فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا) أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحدا ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج .

(وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) أى ونجينا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

شرح المفردات

الحق : هو الثابت الذى لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء و إثبات البعث والقيامة، وفرقناه : أى أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث (بالضم والفتح): التؤدة والتأنى، والخرور: السقوط بسرعة ، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين ، ادعوا الله أو ادعو الرحمن : أى سموه بهذين الاسمين ، خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تساروا فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دالّ على صدق الرسول بقوله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن » الآية ، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لاحاجة إلى شىء سواه ، و بأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المعجزات التى اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها ،لعله أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا ــ عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره ، و بيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا فإن من قبلكم من أهل

الكتاب إذا تلى عليهم خروا له سجدا و بكيا ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالأمران سواء ، ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال فى دعائه يا ألله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » الآية .

وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت .

الإيضاح

(وبالحق أنزلناه) أى وأنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل لتبشيرهم و إنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

(وبالحق نزل) أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يشب بغيره فلم يزد فيه ولم ينقص، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

و بعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) أى وآتيناك قرآنا فرقناه أى نزلناه مفرقا منجما ، وقد بدئ بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأنّ ليسهل عليهم حفظه ويكون ذلك أعون على تفهم معناه . أخرج البيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى ، والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ونزلناه تنزيلا بعد قوله فرقناه — بيان أن ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل على حسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا — آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا — أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا تركـكم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم واحتقار شأنهم بقوله :

(إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا — يخرون لله سجدا شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم : تنزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة — إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء بشأنهم .

(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمره وطاعته .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة ؛ فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى» .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم» .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التميمى أنه قال : إن من أوتى من العلم مالم يبكه لخليق أن قد أوتى من العلم ما لاينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال (ويخرون للأذقان يبكون) .

ثم رد على المشركين المنكرين إطلاق اسم الرحمن عليه عز وجل فقال :

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سموا الله أيها القوم أو سموا الرحمن فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض ، وهذان الاسمان منها .

روى مكحول «أن رجلا من المشركين سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية» .

ثم أمره بالتوسط فى القراءة فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال :

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى ولا تجهر بقراءتك

فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والمخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختف بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به» .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت فى قراءته ويقول أناجى ربى وقد علم حاجتى ، وعمر كان يجهر بها ويقول : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

ولما أمر الله رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله :

(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل) أى وقل لله ذى الجلال والكمال ، الحمد والشكر على ما أنعم على عباده من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

(١) إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه ـ تنزه ربنا عن ذلك ـ ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

(٢) إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

(٣) إنه لم يكن له ولى من الذل أحتى يوالى أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته.

والخلاصة — إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لايحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

(وكبره تكبيرا) أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

(١) بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود.

(٢) بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزه عن صفات النقص .

(٣) بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لايجرى شىء فى ملكه إلا على وفق حكمته و إرادته .

(٤) بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع له الأمر والنهى والرفع والخفض ، وأنه لااعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .

(٥) تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « آية العز (الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية » . وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء » .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح ، الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات » .

مجمل ما حوته السورة من الأغراض

(١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .

(٢) تاريخ بنى إسرائيل فى حالى الارتقاء والانحطاط .

(٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دُولها كما ذهبت دولة بنى إسرائيل .

(٤) بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .

(٥) الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .

(٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .

(٧) الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم .

(٨) قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .

(٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .

(١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم و إلحافهم فى ذلك .

(١١) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل .

(١٢) بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .

(١٣) قصص موسى مع فرعون .

(١٤) الحكمة فى إنزال القرآن منجما .

(١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .